لَسْتُ بأُنْثَى

مجموعة قصصية

شيماء زايد

لست بأنثى

الكتاب : لست بأنثى

المؤلف : شيماء زايد

تصميم الغلاف : شيماء زايد

تدقيق لغوي : أيمن جمال الدين

فوتوغرافيا : نور المصري

رقم الإيداع : 20379 / 2013

الترقيم الدولي : 978-977-6436-32-9

الطبعه الاولي : 2014



20 عمارات منتصر – الهرم – الجيزة

ت-02-35860372   011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

شيماء زايد

لست بأنثى

مجموعة قصصية



إهداء

إليكن ..

فلا أحد يرى ما خلف عيونكن المرسومة وطلاء الشفاه

شكر

إلى مَن صالحني مع طبيعتي التي لا تقبل الركون إلى صخرة الواقع؛

شقيقي الأكبر الذي أنجبته خالتي ..

الشاعر

أيمن جمال الدين.

وإلى الراهب الذي يضيء الشموع للصغار كل مساء حتى لا يضلوا الطريق؛

أستاذي الأديب

رضا الإمام.

عرفاناً بالجميل ..

أحلام مطوية

كان هناك عند الباب يبتسم، ويشعّ من ابتسامة الوجه الخمري نور يضيء الحجرة الضيقة. أمسك بيدها، قادها نحو حصانه الأبيض المجنّح، حلّقا معاً بين نجوم السماء اللاهية حول القمر الذي تهادى ضياؤه على خصلات شعرها الأسود، ولفهما نوره برفق، فلبّيا دعوته، ورقصا فوقه على أنغام الموسيقى الناعمة. ارتشفتْ كأس الأمان من يده، اتخذتْ من النجمة الصغيرة البراقة أرجوحة لها، وقف خلفها لتكتمل سعادتها، وقبل أن يبدأ في أرجحة الطفلة الكبيرة، ربّت على كتفها بحنان وعطف و.. لكزها بعنف.. نهرها بشدة على ما ارتكبته.. هددها بالطرد لو استمرت في سرحانها الدائم.. فالزبون دخل وخرج دون أن يشتري أي شيء، لأنها لم تكن واعية لتقدم خدماتها.. استعطفته؛ لعله يغفر لها، واسترحمته بكل معاني الرحمة.. نظر لها بازدراء، وأولاها ظهره. نظرتْ متحفزة نحو الباب، حتى لا تخونها عيناها فيمر أحدهم دون أن تدركه، لاحظت اتساخ «الفاترينة» الأمامية، فنطقت في وجهها آثار صفعة قديمة من يد أبيها الخشنة، عندما خصم صاحب المحل يوماً من أجرها من قبل بسبب اتساخ واجهته.

دخل أحدهم.. تفانت في عرض السلع.. تحملتْ سماجته وثقل دمه واستظرافه.. وعندما قرر العفو عنها أخيراً، ناولته القميص الذي اختاره بعد رحلة عذاب، فقبض على يدها وهي تعطيه القميص.. شعرتْ بأنه يغتصب من أنوثتها.. ودّت أن تصرخ في وجهه.. أن تثور.. أن تصفعه.. ولكنّ صاحب

المال يراقب من بعيد.. وآثار الصفعة القديمة جرس إنذار في القلب.

رحل الزبون، واستجمعتْ قواها، ولملمتْ أنوثتها المستباحة.

أحضرتْ ورقة جريدة، وسائل التلميع، وبدأت في تنظيف الزجاج المتسخ، رأت في قطرات السائل المتساقطة فوق الزجاج بديلاً لدموعها غير المرئية، راودتها أحلامها مرة أخرى.. ضغطت على الورقة بين يديها، وأخذت تنظّف بعنف، وعندما انتهتْ، «كمشت» الورقة، وطوت معها أحلامها إلى الأبد، ألقتهما معاً في سلة المهملات، سقطتْ منها دمعتا رثاء، وارتهما بأناملها سريعاً، أسرعتْ لغسل وجهها.. أخرجتْ طلاء الشفاه الرخيص، رسمت شفتيها جيداً، ورسمت معهما ابتسامة كبيرة.. ووقفت خلف «الفاترينة» في انتظار الزبون القادم.

ملاك غرب الدلتا

إنها هي، لم تخدعني عيناي، أعرف هذا الوجه جيداً؛ بملامحه البريئة الطفولية الهادئة، وكأنها تطلُّ عليّ بثوبها الأبيض على المسرح، «ملاك نوري في سجال مع الشيطان»، كان هذا دورها في إحدى المسرحيات القصيرة التي قدمناها معاً للأطفال من خلال عملنا التطوعي.

كانت أكثر الناس التزاماً بمواعيد التدريب، أكثرهم سماعاً وإنصاتاً وجدّية.

سلّمتُ عليها بحرارة، وحدقتُ فيها بمنتهى الدهشة، أقسمتُ لها بأغلظ الأيمان أنني كنتُ أبحثُ عنها بين الوجوه، لا أعلم كيف راودني هاجس أنني سوف ألقاها بين المنتظرين في محطة أتوبيس غرب الدلتا بالإسكندرية، وسرعان ما طردتُ هذا الهاجس غير المعقول، وها أنا أراها أمامي.

ولكنها ردّت عليّ بابتسامتها الهادئة المعهودة؛ أنها تعلم ذلك، ولا داعي للقسم، وكأنها..وكأنني..وكأننا على موعد مع القدر.

منذ بضعة شهور تقابلنا هنا أثناء عودتي إلى دمنهور، كنتُ أدرس أحد أنظمة حجز تذاكر الطيران، وكانتْ تدرس في مجال الحاسب الآلي، وعلى الرغم من اختلاف مواعيد عودتنا، فإنني قابلتها مرات عدة، نظراً لتأخر الحافلة، أو لظروف طارئة.. والغريب أنني عند كل لقاء كنت أستشعر بشدة وجودها في محطة الانتظار،

حتى إنني بمجرد الاتصال على هاتفها المحمول أجدها أمامي قبل أن تردّ على الهاتف!.

في اللقاء الأول استطعنا بعد طَول عناء اقتناص مقعدين للجلوس داخل الحافلة رغم الزحام، إلا أننا بعد أقل من ربع الطريق تخلينا عن المقعدين، فقد هممتُ بالقيام لأُجلِس سيدة لم تتحرك لها نخوة الرجال والشباب الممددين على مقاعدهم، فتخلتْ هي الأخرى عن مقعدها لإحدى الفتيات، ووقفنا معاً في الممر الضيق بين المقاعد؛ أنظر لها وأتدبر...، كانتْ تتحدثُ عن حياتها؛ دراستها في الجامعة، عملها في الترجمة عن بُعد من خلال الشبكة العنكبوتية، دراستها اللغات في القاهرة، ودراستها الآن في الإسكندرية، خطتها للمستقبل.. أحلامها.. وأفكارها.

كنتُ أنظر لها بسعادة وفخر، أتذكرُ من سنوات قليلة عندما راهنتُ عليها، فقد عارضني الجميع أن باستطاعة تلك الخجول أن تقدم إحدى فقرات حفلنا الخيري، ولكنني ربحتُ الرهان، وأشادوا بها، وقد كانت نظرتي لها صائبة.

الخجول نفسها بمزيد من النضج والاتزان والسعي للنجاح.

ما زلتُ أتذكر اليوم الذي جاءتْ تودعني فيه؛ فقد أصرّ والداها على منعها من الاستمرار في عملها التطوعي، أحسستُ بالذنب تجاه دموعها غير المرئية، وبخاصة عندما أعطتني مسودة قصة من كتابتها، ما زلتُ أحتفظ بها،

شعرتُ بأنني أعطيتها شيئاً من جنوني بالأدب والفن لتشقى به. ومرتْ الشهور، وكان لقاؤنا الأول في أتوبيس غرب الدلتا، لأرى بين عينيها الآن بريق الثقة، لتعطيني كل الأمل، أفخر به.

سألتها متعجبة: كيف أقنعت أهلك وقد عجزت من قبل عن إقناعهم بنمط حياتك؟

فأجابتني أن عملها أثناء دراستها منحها بعضاً من الاستقلال، جعلها تملك زمام أمورها، أي أنها سعت لاختياراتها حتى اقتنعوا.

لم تمنعنا وقتها أرجحة الحافلة على الطريق من الحديث، فاستطردنا في الحوار. كنتُ أنظر لها بدهشة وإعجاب، ينهرني الطريق بعنف فأستند إليها، وهي على الرغم من ضآلة حجمها ثابتة في موضعها، وإذا اهتزت أحاول إسنادها.

وتكرر الأمر مرتين، لنستأنف الحوار؛ لنتذكر عملنا التطوعي، تحدثني عن ارتباطها نفسياً بأيامنا تلك، وكيف أثرت في أفكارها فاتخذت التغيير والنجاح هدفاً، وأحدثها عن رغبتي العارمة في الاطمئنان على كل من شاركونا العمل قديماً؛ أصحاب المواهب والمبادئ والطاقات غير الموجهة، الراغبين في نهضة بلادهم وتحقيق ذواتهم، عن ولعي بالأدب والجرافيك، ولعنة الفن المبتلاة بها.

محطة الأتوبيس تعجّ بالمسافرين الآن من طلبة الجامعة وغيرهم، ولا أمل لنا، وعلينا أن ننتظر الحافلة القادمة. انتهزتُ فرصة الانتظار، وسألتها عن حياتها، لتخبرني أنها تخرجت..

ما زالت تعمل في الترجمة عن بعد، وسبب وجودها في الإسكندرية حصولها على منحة للحاسب الآلي واللغة الإنجليزية، وأنها تسعى لمنحة دراسية في الخارج، لتمنى أن تفوز بها. سألتني عن حياتي، فأخبرتها أنني أعمل أيضاً عن بُعد في مجال التصميم مع إحدى وكالات الدعاية، وما زلتُ أكتب، علّ أحداً يقرأ، ووجودي في الإسكندرية لقضاء حاجة ما.

شتتنا الزحامُ أثناء محاولتنا المستميتة استقلال حافلة للرجوع.. داخل الحافلة أبحث عنها بين المقاعد، فإذا بها تستقل حافلة أخرى، أراقبُ وجهها من خلف الزجاج، أتأملُ هذا الملاك داخل أتوبيس غرب الدلتا. كنت قديماً أمارس عليها سلطة فنية، وأنا في قبعة المخرج، واليوم أجلس بين يديها كتلميذة صغيرة، أتعلمُ التخطيط للنجاح، وهي محترفة، ويذوب بيننا هذا العام الذي ولدتُ فيه قبلها.

كلٌّ مِنّا داخل حافلتها، ولكنني أثق أنها سوف تصل أولاً.

شروخ امرأة

(١)

كانتْ تسأل صورتهَا داخل المرآة كل صباح عن ذلك الرجل الذي لا يجيء، والذي أخبروها أن حريتها مرهونة به. فكانت تجيبها، أنها امرأة خذلها كل الرجال.

(٢)

سئمتْ الانتظار، قررتْ أن تسأل مرآتها سؤالاً آخر.. لم تجد إجابة.. استرحمتها..استنطقتها.. صفعتها بكلتا يديها، وأخذت تتحسس الشروخ المنتشرة على سطحها كعش عنكبوت؛ متأملة صورتها المتكسرة بين الأجزاء، غير عابئة بالدم المنساب من أصابعها، والشظايا المغروزة في اللحم.

(٣)

أخبرتهم مراراً: «لم أقصد تحطيم المرآة، فقط أردت تحرير الوجه المحبوس داخلها»، إلا أن أحداً لم يستمع إليها، فصوتها سُلب مع ما قد سُلب، وظل مرهوناً برجل.. لا يجيء.

(٤)

اعتادت انعكاس ملامحها الممزقة على السطح الممتلئ بالشروخ، عاودت طرح سؤالها الأول .. وظلت تنتظر الإجابة بالخذلان.. إلا أنها أبت أن تؤنس وحدتها.

زفاف ووجوه كثيرة

(حذف)

عندما حذفها هو من وريقات حياته، أثبتته هي في كل الكتب.

(طاولتان)

بينما كانت تنظر إلى أربع سنوات من عمرها تزفّ إلى غيرها، كان هو في الطاولة المقابلة ينظر إلى سنوات عمره الست الضائعة بين عينيها.

(مفاجأة)

أدركتْ فجاة بعد أيام حيرة طوال، أنها سعيدة حقاً يوم زفافه.

(ألم)

كانت تنظر لكل الحياة النابضة في صخب الاحتفال، وصوت صفيره يرنُّ في أذنيها معلناً حصولها على لقب «عانس» بعدما فاتها القطار.

(خيانة)

كانا يتبادلان الشراب من الكأس نفسها، وعيناه تغازلان الفتاة ذات الثوب الأحمر في الجهة المقابلة.

(طلة)

أطل برأسه من باب القاعة، رأى أحلامه تُزف إلى غيره.. عجز أن ينقل قدمه من موضعها.

(ذهب)

رأى في قلادتها تأشيرة سفر، وبين أساورها تذاكر الطائرة، فافتعل الحوار.

(طعام)

رحلوا جميعاً، عقب افتتاح البوفيه بوقت قصير.

(صاحب الليلة)

كان يجلس في مكانه يعلم كل شيء.. وادّعى أنه لا يعلم أي شيء.

صائد الفراشات

أحبَّ الطبيعةَ.. عشق وجوده بين سنيّ الضوء المحملة بألوانها الباهرة. وجوده بين الأضواء والألوان يستر مساحة فارغة داخله؛ يسترها دون أن يملأ فراغها.

في الغابة ـ حيث الطبيعة ـ بنى مسكنه بعيدان من قصب، وأساس من قش.. اعتاد كل صباح بعد تناول الإفطار أن يقَبِّل أبناءه قُبلةً روتينيةً، ويخبر زوجته بابتسامة مصطنعة أنه سيفتقدها طوال غيابه، ثم ينظر إلى صورته التي رسمها وألصقها على المرآة بأكملها ليتأكد من أنه ـ أي أنها ـ كما يجب أن يكون.

لا مانع لديه أن يستنفد بضع دقائق عقب خروجه لإقناع ابنته ـ التي دائماً ما تتسلل خلفه ـ أن عليها المكوث في البيت وانتظار عودته.

في عمق الغابة تتنقل فرائسه بخفة وحيوية؛ تلك الكائنات الصغيرة والضعيفة شديدة الجاذبية.

يبحث عن أكثرها ذكاءً وجمالاً وتميزاً، يتفنن في نصب المصائد والشراك لها؛ يغزلها بحنكة ودهاء، بفتلة من حرير، وأخرى من حديد، ثم يلقي طُعْمَه الذي هو مزيج من السم والعسل، وينتظر رحيل الشمس. وأخيراً يضيء كشافاته لينبعث ضوؤها ـ علا أو خفت ـ على حسب نوع الفراشة.

..على الرغم من إحساسها بالخطر، فإنها لا تقاوم انجذابها لمصدر الضوء»، هذه هي طبيعة الفراشات.

وعندما تسقط فراشة في شراكه، يخترق صدرها بسلك صلب، ليصنع منها حلية، يضعها جوار ضحاياه السابقين في طوق إنجازاته الذي يُزيِّن به صدرَه دائماً.. يُزيِّن صدره بتهشيم صدرها، ويرضي غروره بإزهاق روحها (!).

في ذلك اليوم وجد ضالته.. فراشة صغيرة تتألق بألوانها الرائعة بديعة التناسق، وخفتها غير العادية. كانت أكثر ذكاء من كل الفراشات التي قابلها من قبل، لم تفلح معها الشِراكُ والمصائدُ، استطاعتْ أن تصل للضوء دون أن تسقط.. لم تسلب الأضواء الصناعية وعيها.

حاول مراوغتها ومداعبتها.. منحها بعض الأمان الوقتي، وانقضّ عليها؛ إلا أنها كانت دائماً تستشعر الخطر قبل قدومه بلحظة، وكانت دائماً تسبقه للنجاة بلحظات.

كلما نجت من شَرَك، استشاط غضباً، وازداد رغبة في امتلاكها.. ما زالت تنجو، وما زال إصرار رغبته ينمو، حتى صار شبحاً طمس روحه، فنسي كل شيء عدا فريسته.

لمعت فكرته الشيطانية قبل الشروق بساعة.. إن لم يستطع اقتناصها فيكفيه أن يحرم أي أحد آخر منها..

عندما تبرز الشمس رماح أشعتها لتبدد جيوش الظلام، سوف تنفتح لها السماء

فتطير أينما تشاء، وكيفما تشاء، ولن يستطيع اللحاق بها.

بدأ في تنفيذ خطته.. جمع الحطب في عجالة بهمة عالية؛ كوّمَ الحطبَ فوق جذع شجرة سبق أن حُرمت من الحياة هي الأخرى. وأشعل النيران، فتعالت ألسنتها، إلا أنها لم تكن أكثر حدة من الشرر المتطاير من عينيه.

كالسحر كانت الفراشة تستسلم لنداء النار، دارت حولها مرتين، شربت الكأس الأخيرة من دخانها، وارتمت في سعيرها.

عندها فقط امتلأت عيناه بنشوة الانتصار.. عندها فقط شعر كأنه ملك متوّج على الكون بأسره، عندها فقط خط التاريخ أنه أبرع صائد فراشات.. وعلى بعد خطوات منه، كانت ابنته طعاماً لوحوش الغابة.

لست بأنثى

نقرات لوحة المفاتيح كانت تغزو سكون المكان.. بعض الأحاديث الهامسة.. الجمل الحوارية القصيرة ذات الطابع الآمر، أو الاستفهامي.. ورنين الهاتف أحياناً..

هناك في أبعد ركن... كانت النقرات الأقوى.. والأسرع موصولة دون انقطاع.. كانت هي «صاحبة النقرات»، الأكثر مهارة.. والأصغر سناً أيضاً..إلا أن نظارتها كبيرة العدسات، والتي تخفي نصف وجهها الذي بالكاد يظهر بعدما أخفت معظمه بربطة حجابها، وملابسها الواسعة القاتمة دائماً.. وانحناءة ظهرها أمام شاشة الحاسوب..كلها أشياء منحتها عمراً كاذباً.. يفوق عمرها بمراحل.

منذ سنين وعالمها محصور بين الصفر والواحد، فالحياة الرقمية ملاذها الوحيد. العالم أوسع من أن تعيه، والنفوس أغرب من أن تتفهمها، والظروف أقسى من أن تتحملها..أما الكود فهو الشيء المنطقي الذي لا يخذلها؛ الرموز والأرقام والعلامات.. زخم تتوه فيه ويتوه فيها ولا تسأمه.

ساعات النهار موصولة بالكود في العمل تنجز المهام المطلوبة، وساعات الليل موصولة بالكود في المنزل، بين الكتب ومواقع تعليم البرمجة.

أما الأهل فهي لم ترَ أباها قط، وأمها تُوفيت منذ عامين، وشقيقها الوحيد سافر إلى الخليج قبل وفاة أمهما ولم يعد.والأقارب يتواصلون في الأعياد..

وهي لم تكن بارعة في اكتساب الصداقات.. كانت وحيدة أكثر مما ينبغي.. فقط عندما تتوقف عن ملء شاشة حاسوبها بالسطور الكودية.

وهو كان يراقب من مكانه البارز، كان يعلم جيداً أنها تحمل بين ضلوعها قلباً بكراً لم يخفق من قبل..فلديه خبرات متعددة في التنقل بين القلوب...ولأنه يعلم أنها آخر مَنْ يرحل، ظل يعمل لوقت متأخر ذلك اليوم.. خلا المكان إلا منهما وحارس الأمن، وكان عليه أن يبدأ..

تحرك بثقة تجاهها، وقف جوارها.. لم تنتبه إلا بعد مرور دقائق عدة.. انحنى ينظر في شاشتها، توقفت عن الكتابة..

ابتسـم..

نظر داخل عينيها جيداً وتحدث..

وكأنها لم تسمعه يتحدث من قبل قط..

وكأنها طفل يكتشف حاسة السمع للمرة الأولى..

لأول مرة تخون عشقها للصمت مطالبة بالمزيد..

فقط لأنه أخبرها أن عليها أن تريح عينيها الجميلتين من العمل قليلاً،

ودعاها إلى فنجان قهوة في المقهى المقابل للعمل.

وعلى الرغم من رفضها الدعوة، فإن القهوة ظلت تطاردها بقية اليوم؛ رائحتها الزكية، وطعمها حلو المذاق.. وصوته الرخيم على مسامعها التي لم تألف عبارات التغزل من قبل.

لأول مرة تبتعد عن طقوسها المعتادة مع الأكواد. ظلت تتأمل وجهها في المرآة كثيراً، لم يخبرها أحد من قبل أن عينيها جميلتان، كانت محل سخرية الجميع في طفولتها، فطالما تعاملوا معها على أنها الكائن اللاآدمي البدين. ولم تكن مراهقتها أكثر حظاً، فعلى الرغم من فقدانها الكثير من الوزن، كانت كمية الأسلاك المعدنية المتدلية من أسنانها كفيلة بأن تظل موضع سخرية كذلك.

إلا أن تفوقها والتزامها وبراعتها في التعامل مع الكود كانت محل إعجاب الجميع...هي لم تنجح إلا مع البرمجة وبها.

لم تنم ليلتها، والليالي التالية جيداً...فهو يتعمد أن يظل معها في العمل حتى يرحل الجميع؛ يرسل بعض عباراته الساحرة، تتقبلها بالصمت ممزوجاً بالابتسام الخجول.. يكرر دعوته إلى تناول القهوة، وتكرر الرفض.

ساعات نومها التي تقلصت حد التلاشي أصابتها بحالة من عدم الاتزان.

أصابعها صارت مرتعشة على لوحة المفاتيح. والأكواد تتراقص في أبعاد الشاشة هنا وهناك.

قررت أن ترحل عن العمل مبكراً، وللمرة الأولى، وسط دهشة الجميع..مضت تتخبط في طريقها.. لحق بها، تعثرت في ارتباكها، وكادت أن تقع، لولا أن امتدت يده تنتشلها من السقوط..

لم تستطع رفض دعوته هذه المرة.

تشاركا القهوة، والحديث، وأشياء أخرى.

تذوقت لذة الحديث، بعدما استبد بها الإنصات...

تغيرت.. نعم، تغيرت.

تخلت عن النظارة إلى غير رجعة... صارت خطواتها واثقة، وملابسها تلائمها، وزادت إقبالاً على الحياة، و أدمنت القهوة...اكتسبت العديد من الصداقات في وقت قياسي... لم تمنح الكود أكثر من وقت العمل.

كان الجميع منبهرين بالتغير الحادث، بدأ زملاؤها في التودد إليها، وكأنما ها هنا تولد أنثى جديدة لم يروها من قبل.. إلا هو.. كان يتذمر من إشراقة وجهها، واتساع علاقتها، ومراقبة العيون لها...

وحدث ما كانت تحلم به كل مساء؛ عندما أخبرها أنه يراها الزوجة الأصلح له، وأنه لا يتخيل الحياة من دونها. .كان قلبها يزقزق كعصفور صغير لا يستطيع الطيران أعادوه للعش بعدما سقط من زمن بعيد..استشعرت أنها امتلكت العالم بأسره.

إلا أنه أطنب... أنه يريدها أن تترك العمل، وتقطع علاقتها بكل الأصدقاء، أن تهجر الكود إلى غير رجعة... واستأنف الشروط:

بألا تزعجه بالكثير من الأسئلة حول أصدقائه وخروجه ووجوده.

وأن تهتم بأبنائهما في المستقبل؛ فهو لن يكون لديه متسع من الوقت.

واختتم قائمة الشروط الطويلة بعبارته الحماسية:

أريدك لي وحدي.

كانت تتابع حديثه دون كلمة واحدة،

لملمت أغراضها المبعثرة أعلى المنضدة...

ارتشفت بعض الماء من الكوب أمامها ورحلت.. وسط اندهاشه الفج.

نادى عليها...لم ترد.

عاود اللحاق بها... معاتباً..

توقفت للحظة، تأملته بعينين أخريين لم ترَه بهما من قبل..

سألته: أتريدني حقاً؟

أجابها: أكثر من أي شيء.

أطنبت: لست بشيء.

ابتسم قائلاً: أكثر من أي أنثى.

استأنفت طريقها... بعدما أخبرته بكل حزم:

لستُ بأنثى.

ذكرى

عام آخر يمضي، تنفرط أيامه من بين أصابعي، تسرقُ من عمري جمالَهُ، وأسرقُ منها الزيف.

بسمات مصطنعة تنبعث من وجهي الذي أضحى جزءًا من المكتب الفاره، فأنا والمكتب وأثاثه مجرد صورة للوظيفة المرموقة؛ النجاح، الأصدقاء الوصوليين، التنقل، الصخب، المال الوفير، والكثير من الوحدة القاتلة التي تتسلل من ثغرات الوقت، وتخيّم على سويعات النوم القليلة.

تمرُّ يدي سريعاً على الأثواب المعلقة في الخزانة، وهي تعرف وجهتها جيداً؛ فعباءة أمي السوداء لا تبرح جدار الخزانة الأيسر، أمرُّ على الأثواب كل عام لأنتقي أي ثوب آخر لتلك المهمة الثقيلة، إلا أنني أستفيق في النهاية داخل العباءة نفسها، لا أعلم لماذا أفضّل عباءة أمي، لماذا أشعر بكل الزيف يسقط عني وأنا داخلها؟!.

أتذكرُ وجهَ تلك الموظفة الشابة التي رأتني في العام السابق داخل ثوب الحداد أجثو أمام القبر، بكتْ من أجلي،كانتْ على وشك أن تحتضنني، إلا أنها خشيتْ عواقب ذلك، رأيتُ في وجهها الشفقة، والكثير من الخوف.. كخوف الجميع الذي أقرأه في وجوههم كل صباح، مع بعض علامات الحقد، أو الغيرة، أو الشفقة، أو الازدراء!.

أتلقى نظراتهم النارية من خلف ابتساماتهم، وترنّ في أذنيَّ كلمتهم الأثيرة غير المنطوقة «حظوظ»، أرى اتهامهم لي بالجشع «يا لها من حمقاء غرّتها الدنيا والمال حتى إنها لم تتزوج». أشعر كذلك بمصمصة الشفاه أسفاً على تلك العانس، وما الذي جنته من النجاح.

كلها مبررات سخيفة لتراخيهم وفشلهم.. مَنْ منهم يفوقني سعادة؟.. كفى خداعاً، هل أنا سعيدة حقاً؟.. طالما حلمت بالصغار، بالأمان، بالتجمع حول شاشة التلفاز.. بالزوج الحنون.. وهل هناك رجل حنون؟! أشك في ذلك.. سحقاً لكل الرجال.

- أعطني الرُّخص.

- ماذا؟!!..

- مخالفتان؛ سرعة زائدة، وكسر إشارة.

- عفواً، لم أكن واعية للسرعة...

- عدم وعيك على الطريق مخالفة أيضاً يا سيدتي.

- ولكن..

- الرُّخَص من فضلك.

- ها هي..

شرطي سمج.. يا لغبائي، كيف أعطيته الرُّخَص بكل هذه السهولة!...لا يهم، في الغد سوف أتصل بأحد المسؤولين.

رباه، كعادتك دائماً.. حتى ذكراك تجلب المشكلات يا أبي، لا أعلم ما الذي يجبرني على قطع هذا الطريق كل عام من أجل رجل لا يستحق.. إنها فقط تلبية لرغبة أمي، لقد أوصتني بزيارة قبره كل عام في ذكرى وفاته.

أمي... تلك المسكينة التي لا أظن بأن الكدمات وآثار الصفعات غادرت يوماً وجهها.. يا لها من ساذجة، كيف تخلص لمثل هذا الرجل حتى بعد موته؟!، إنه يستحق الموت ألف مرة، يستحق أن تموت ذكراه للأبد.. أنا أكثر منها قوة وتميزاً، وما الذي جنته هي غير الألم؛ ألم هو مصدره، وألم بعد موته... عجباً لها!

أتتعذب من أجل مَنْ عذّبها؟!

عذراً أماه، إنها الزيارة الأخيرة.. لم تقيدني يوماً عاطفةٌ تجاه أحد، ولن يقيدني وعدي لك، فإن المشاعر في حياتي ميتة بموتك أنت. طالما تعذب كثيرون من أجلي.. من أجل حناني ومشاعري، دون جدوى، الحقيقة أن البعض منهم استمال قلبي...إلا أنه فقط بعض الاحتياج الوقتي.

لا يهم، ها أنا أقترب من المقابر، سوف ألقي عليه لعناتي الأخيرة، وأتمنى له الجحيم من كل قلبي، كذلك الجحيم الذي كان يصنعه مجرد اقتراب موعد عودته للمنزل، لنلملم شقاوتنا وضحكاتنا وبراءتنا أيضاً، لاستقبال تجهمه وقسوته بوجوه شيوخ.

سوف أحرق أيضاً كل النباتات التي تزين قبره، لم يزين يوماً حياتنا لنزين مماته، سوف ألقي ما تبقى له من ذكرى سوداء في سلة مهملات الماضي.ربما أيضاً أنبش قبره، وأحرق ما تبقى من جسده، كي لا يتبقى منه أي شيء.

ها هو قبرك الذي ترقد فيه بسلام.. سوف أركل تلك «الزرعة» التي اشتريتها لك في العام السابق، وهذه.. وهذه..

..لا، «زرعة» أمي.. انكسر الإصيص.

أنا أكرهك، ألا تكفيك سرقة بهجتنا القديمة، ربما لو لم تكن أبي لتزوجتُ مثل باقي الفتيات، ربما كنتُ قابلتُ مَنْ يفوقك شرفاً وحباً وحناناً، أكرهك وأبغض ذكراك القاسية.

- هل أحضرُ إصيصاً بدلاً من المكسور يا سيدتي؟

- نعم يا صغيرتي... وبعض الزهور أيضاً.

- حسناً..

- انتظري.. أحضري الكثير من الزهور.. هل لديك أب؟

- نعم.

- هل يضمك؟

- لا..

- اذهبي لتعطيه هذا المال، واطلبي منه عناقاً طويلاً.

- شكراً لك.

ربما لو كنتَ ضممتني لصدرك يوماً

لعلمتُ كيف أختارُ صدراً أسكنُ إليه ..

رحمك الله يا أبي.

دموع الزهور

(١)

«الزهور مثلنا تضحك وتبكي»

ما زالتْ كلماته تتردد في مسامعي، يتراءى لي وجهه المملوء بالتجاعيد وهو يبتسم، يده المرتعشة وهي تربّت على ظهري، طالما أرضى فضولي بأجوبته، طالما أرضاني بوجوده.

(٢)

«كزهر العَبّاد سيري في اتجاه الضوء»

أتلمسُ السبيل نحو الضوء، تتحسس خطواتي زهر العباد، ولكن الشمس نسيتْ أن تشرق فوق قلبينا، ها نحن ننتظر الصباح بجذوع منحنية.

(٣)

«لا أحد غير الزهور قد يعلمك لغتها... اسأليها لعلها تجيبك»

لم يعلمني أحد شيئاً سواك، تقليم الزهور.. تنسيق الحدائق... العزف على أوتار الطبيعة، وعندما خطوتُ خطواتي الأولى، أحضرتَ لي حصاني الخشبي، الذي ما إن ركبته حتى أطلقتُ جناحيّ، تخبطتْ ضفائري على وجهي،

انحلَّ الشريط الأحمر، حلّقتْ بعيداً.. فسقطتْ فوق أشواك الحديقة.

(٤)

«الزهرة الوردية، أبيّة»

الزهرة الوردية يا جدي تئنّ، تحدثني بوحدتها، بوحشتها، بخشونة راعيها، بقلة حيلتها، أراها تذبل، فلا أجد ما أرويها به سوى العجز. لماذا باعوها لمن لا يستحق؟!، ربما لو قالت: «لا»، لاستجابت ضمائرهم الصمّاء.

(٥)

«القرنفل الأحمر، محبة»

القرنفلة مكسورة يا جدي، لا أحد يعلم بانكسارها، كل الأيدي تطلعتْ لقطفها، فكانت الأشواك جزاء العابثين، وعندما ارتضتْ مداعبةً يدٍ حانية... كسرّتها، لم تخبرني يوماً إذا كانت هناك جبيرة لساق زهرة، ليتك علّمتني يا جدي كيف أجبر الكسور.

(٦)

«الكاميليا البيضاء، جاذبية»

زهرة الكاميليا اعتزلت كل الزهور، على الرغم من رونقها وتفردها، إلا أن النسيم أخلف موعدهما، انتظرته طويلاً حتى ملّتْ الانتظار، وأضحت عبارات المواساة تحرقها، فقررتْ الانزواء، لو تعلم أن وجودها ميلاد للبراءة والجمال، لآثرت البقاء.

(٧)

«اختر مأساتك قبل أن تختارك»

أليس هناك خيار آخر؟، هل تسلبنا الحياة ثمن ضحكاتنا القديمة؟، هل لنا أن نضحك قبل أن نبكي، أو نبكي قبل أن تبكينا الحياة!...

عندما تتلون السماء بحمرة الفجر، سوف يظنون جميعاً بأن الزهور تعلوها قطرات الندى، ولكنني أعلم جيداً أنها دموع الليل. سوف أجمع كل الدموع ممزوجة بدموعي، وأروي بها نباتات الصبّار على بابك يا جدي، واعذرني، فشجرة الياسمين أبت أن تنبت في تربة قبرك، فلم يبق لي ولك سوى الصبّار.

عزة نفس

(١)

لم تكن لتعترف يوماً أمام نفسها بهذا الضعف، وكيف تلقي قلبها في معركة خاسرة.

(٢)

لم تعد تنظر في المرآة، خشيتْ أن تقرأ في انعكاسها ما لا تريد أن تعترف به يوماً.

كممتْ النبض الدافق داخلها، حرّمته على نفسها، أمعنتْ في قتله يوم حاولت أن تقنعه بترديد لحن آخر يجمع بين أنغامه هو وأنغام أعز صديقاتها.. إلا أن اللحن لم يُعزف.

(٣)

حب..احتياج، أفنت ملايين الزهور علّ زهرة برية تجيبها يوماً، وكثيراً ما تاهت الإجابة بين دموعها والوحدة.

إلا أنها لم تستطع يوماً أن تلقيه من روحها، وإن كان محمّلاً بالألم والمعاناة.

(٤)

كممتُ القلم أن يخطو نحوه، خشيتُ أن يتسرب يوماً إحساسُها فيضيعَ معه كبرياؤها.

وعندما كتبتْ سألتُها:

– لم؟

أجابتْ:

– إن لم يشعر بما أخفيه، فلن يشعر بما أعلنه، هذا القلب القابع داخل صدري لا يكسرني، وإن حاول سوف أحرقه، حتى يتفحم، فأسحقه، فيصير رماداً أنثره في بحار من عزة نفسي.

(٥)

ورقة مطوية ملقاة في جانب مهمل..أفضضها.. أقرأ ما كتبت:

«ألم تر في الأعوام السابقة؟!، ألم تستطع رؤية وجهي من خلال مياه الخليج المالحة؟!.. طالما سقط مني وأنا أحدق في ماء النيل بحثاً عن وجهك المطبوع على ذاكرته.

واليوم، تحررتُ من لعنتك، عندما نثرتك بين كلماتي».

امنحوه جسداً

ضوء مبهر يخترق جفوني، أحاولُ أن أحجبه بيدي فلا تطاوعني، أفتح عينيّ جاهدة، تتراءى أمامي أشباح بيضاء.. الحجرة بيضاء.. أضواء مسلّطة على وجهي، وأنا ممددة على ظهري، أسمع أصواتاً مشتتة.. وأتوه، فتفقدها أذناي.

- امرأة!!

- نعم ..

- ولماذا؟

- لأنها أسهل في الانقياد.

انقياد ..! لست ممن يُقاد.

أحاول أن أنهض دون جدوى، فأنا لا أملك جسدي..أملك ذكرى.. حلماً لو يكتمل.. أسطورة؛ والبطل مجهول، والزمن مجهول، والواقع.. ممنوع الاقتراب.

- هل تسمعنا الآن يا دكتور؟

- نعم.. لكنها لا تستطيع التكلم.

- لماذا لم نُفْقِدها وعيَها بالكامل؟

- لابد أن نراقب كل ملابسات التجربة.

أية تجربة؟!.. ما الذي يفعله بي هؤلاء الحمقى؟..أين أنا؟.. يا لطنين الأجهزة المستفز.. ترى، ما الساعة الآن؟ لا أشعر بساعدي.. أحاول أن أسترق النظر بطرف عيني، معصمي فارغ، الكثير من الأسلاك، الإبر المعدنية، وقطع اللاصق الأبيض تغزو ذراعي..لا أحب هذا اللاصق، طالما نزع جلدي أثناء انتزاعه..

ولكن، أين الساعة؟، تلك العقارب الفضية الشقية التي تمنحني البهجة مع كل ثانية، وتطلّ منها دنياي الطيبة.. دنياي الوردية..نزعوا الساعة.. أخذوها مني..

- أعطني المشرط.. راقب النبض.

أهناك نبض؟.. إذن، ما زلتُ ضمن الأحياء، طالما أن قلبي ينبض.. ماذا يفعلون؟.. أود الصراخ؛ دعوني وشأني.. ولكن صوتي قد سُلب.. ترى، هل يسلبونني صمتي؟

- انزع الرئة.

- هل سنبدأ بالرئة؟

- نعم، سنبدّل كل الأجهزة.. سنجعلها نصف آلية.

انزعوها إذن، لا أريدها.. فأنا لا أتنفس هواءكم، لا أحمل دم أفعى ليسري هواؤكم الملوث داخلي.

المشرط يهبط.. يعلو.. تكسوه دماء.. تكسوه دمائي.. أخذوا أشياء من صدري.. وضعوا أشياء.. ويعود المشرط يشق، وأياد تنزع، وأشياء توضع.. وأنا... عاجزة يعتصرها الألم. .يبدو أن عقاقيركم يا سادة لم تخدر مشاعري؛ مشاعر حمقى جامحة، محبوسة في وجهٍ صخري.. والروح.. الروح أضعف مما تنسجه دودةُ القزّ.. كان لأخي صندوق صغير يربي فيه ديدان القز.. أين الحرير؟ لا أرى إلا الديدان، وبقايا ورق التوت اليابس.. وأخي.. مَنْ أخي؟.. ومَنْ أنا؟.. أنا كهف من ورق.

- مستحيل!!

- ما الذي يحدث؟

- كلما نزعتُ القلبَ ينبتُ من جديد!!

- أهناك تغيّر جيني؟

- لا دخل لذلك بالتجربة.. إنه غير معقول.

قلبي لا يُنزع أيها البلهاء.. لو سألتموني مِنْ قَبل لأخبرتكم؛

لم أستطع أبداً انتزاعه، حاولتُ إخراسه.. تجاهله.. تلاعبتُ في دقاته.. طمستُ رسائله.. كاذبة؛ لم أرد أن أكون هو.. ولكن الحقيقة إنه أنا.. أين أنا؟

- ربما إذا استأصلناه جزءًا جزءًا لا ينبت.

- سوف أشقه نصفين.

- أجزاء يا دكتور..

- لا وقت لدينا.. ها قد نزعتُ النصف، ولم ينبت نصف آخر!

دمائي تسري ولو في قلب منشطر النصفين.. أليس كذلك يا نصف قلبي؟.. انزعوه، أبعدوه، واجعلوه أكثر قسوة.. أكثر حباً.. أكثر عنفاً، فإن دمائي تسري وإن بردتْ..تغذي عالمي..عالمي المليء بالمجنّحين والأجنحة.. ألن تعطوني أجنحة آلية؟

قديماً منحوني جناحين بيضاوين، لكنني لم ألعب دور الملاك، فضّلتُ الأجنحة السوداء، ولم أستطع قط تقمّص دور الشيطان.

ألا توجد ألوان أخرى بين الأسود والأبيض؟!

لماذا تهرول الأطياف البيضاء من حولي؟!

- شيء عجيب، كل الخطوات مدروسة، ما الذي يحدث؟

- يجب استئصال القلب، وإلا لن يعمل القلب الآلي..

- فلنفعل شيئاً لتفلح التجربة.

- أعطوني مشرطين.

يا قلبي المسكين، أتتحمل الطعنات المزدوجة؟

- لنقتل الخلايا.

- نعم، نكويها.. فليكن الكي.

وهل تُحرَق الإرادة! أحرقوا المرئي لكم، لكنكم أبداً لن تحرقوا ما لا ترون.. وما لن تروه أبداً..أنا أرى ما لا ترون.. أرى التمرد بين أمواج البحر الصارخة.. الصامدة.. تفتت الصخور في صمت وصبر وكبرياء، أرى البريق في عيون تلك الفنانة المجنونة الحنون، لأدرك أنها وجدت شريكاً لحياتها؛ صديقتي القديمة التي لم تعد قديمة.. ولم تكن صديقتي.

أرى الخوف في عيون مَنْ أحب، فلا أجيبهم سوى بالعجز، ودموعي غير المرئية..هل قصّرتُ في حقهم؟.. هل أستطيع مساعدتهم؟ .. كيف وأنا أحيا داخل نفسي!.. وهل أستطيع مساعدة نفسي؟!،

لكنت دافعتُ عن قلبي الممزق بين أيديهم السوداء في القفازات البيضاء.

– الوقت ينفد.. دع القلب للنهاية.. فلنستبدل باقي الأحشاء.

الوقت ينفد، يضيع من بين يدي، وأنا أسعى ولا أصل، ربما لأنني أسعى أيضاً داخل نفسي، هل سيجعلون مني آلة حقاً؟، ولم لا؟.. ربما أستطيع السير دون توقف؛ فالآلة تعمل بوقود واحد، وأنا أسير بوقود نفسي طالما ينفد؛ وقود صحي لا يحملني كثيراً، وقود عقلي لا أحسن استهلاكه، ووقود رؤية قلبية أكبر مني، ولكنها لا تحملني.

– لا تضع شيئاً مكان الرحم.

أيحسبون أنهم ينتزعون أمومتي.. أنا أحلم من أجل الأبناء.. كل الأبناء.. فأنا أم من رحم الأمة؛ أبنائي سوف يولدون من رحم اليأس، وبين عيونهم قناديل تنير الطريق..

هم ك (لور).. أصغر الصغار.. يقولون إنها تحمل بعض ملامحي.

– كل شيء هنا لا يعقل.. غريبة هي.. غريبة حقاً.

يا لتلك الكلمة المكررة المستهلكة، نعم، أنا الغريبة..

لو كنتم جميعكم غرباء.. لو كنتم بسطاء.. لو كنتم أدباء..

والأدب بضاعة محتالين، وأنين من طهر الشرفاء.

أنا الغريبة يا عيوناً أشعر داخلها بالغربة.. أنا الغريبة يا كل معنى يحمل وجهين.. أنا الغريبة يا قبر أبي..

أشعر بجروحي.. زال المخدر.. أستطيع أن أحرك أصابع قدمي..وأصابع يدي أيضاً..

- تعطلت الكبدُ الصناعية..

- والرئة أيضاً.

- إننا نفقدها..

- افعلوا أي شيء... لقد أنفقنا الكثير على التجربة..

عبيد النقود أنتم، وأنا أمة الله.

- كل شيء يتوقف.. لقد فشلنا..

دائماً أنتم الفاشلون الخاسرون، وأنا.. ما أنا سوى هذا القلب الذي أرهقكم.. وأتعبني حقاً.. إلا أنني عشقت آلامه.

- انتهى الأمر.

- لا فائدة.

- أبلغ الإدارة العُليا.

عُليا.. عُليا.. عجباً يا قاطني الدنيا، ها أنا أستطيع تحريك يدي قليلاً.. أسحبها ببطء.. أرفعها فوق جسدي.. تمرُّ على الجروح والندوب والدماء.. أصل أخيراً إلى قلبي.

- انتبهوا، إنها تتحرك..

- حقاً.. ما الذي يحدث؟!

أنتزعُ قلبي من موضعه..أرفعُهُ على سارية هي ساعدي.. تشق دماؤه عليها ألف نهر، ألتفتُ إليهم، يلبي صوتي ندائيَ الأخيرَ، يحملُ كلماتي.. «امنحوه جسداً.. امنحوه جسداً يقدر على احتوائه».

بين قوسين

(١)

كتب اسمه...فتح قوساً..كتب اسمها.. توقعتْ أن يغلق القوس، ولكنه وضع ثلاث نقاط!

(٢)

ألقى دفتر ملاحظاتها جانباً، نظر إليها بازدراء، تمتم بصوت مسموع: «كلام فارغ»، ودّتْ أن تخبره أن حياتها معه هي الأكثر فراغاً على الإطلاق.

(٣)

لم يكن السبب تقتيره عليها..أو تحقيره من شأنها.. أو حتى انعدام ضميره وخياناته المتعددة.. فقط حذفت اسمها من اسمه لأنه حرمها حق الابتسام.

(٤)

وضعت الاسم مرة أخرى بلا أقواس، محاولة منح القوس الوحيد لوليدها الذي لم يحمل اسماً بعد.

(٥)

كلما نما الجنين في بطنها، زادتْ حدةُ سؤالها: «هلّا منحتني بعض الابتسام؟»‌. .لم تكن تريد ممارسة فعل الابتسام، فقط أرادتها بسمة سوف لن ترسمها أبداً على شفتيها، ولكنها سوف تحتفظ بها للوليد.

(٦)

حذفت اسمه، واسم الوليد، واسمها، وأغلقت القوس، ليتبقى بين القوسين ثلاثُ نقاط..هكذا راودتها أحلام الليل، إلا أنها في الصباح، وجدتْ أنه قد حرمها حق الانتقام.

المتلازمة

دقات الساعات المزعجة في كل مكان..

نقرات و«خروشات».. ألف ترس يدور.. عقارب تتقافز واحداً تلو الآخر، تلتهم لحظات سكينته..ينفض عنه الغطاء، يغادر سريره شاهراً عناده الأبدي، فالتروس لا تعرف المرض.

خطواته غير المتزنة لن تعجزه عن غسيل ملابسه، فليقذف الملابس من الفوهة الدائرية، يضع مسحوق الغسيل، يضبط البرنامج، يوصل الكهرباء.. ويبدأ كل شيء يدور؛ المحرك، فالتروس، فالسيور.. وترتج فقاعات الصابون خلف الباب الزجاجي.

الحمى، والحنين، فالذكرى.. يتذكر أمه.. «بَشر الصابون نابلسي شاهين».. «ماجور» الغلية...المياه في كل مكان.. صوت الغسالة اليدوية يرج المنزل... وأبوه يتصفح أهرام الجمعة في الشرفة المطلة على الحقل، وشقيقته الكبرى تصفّي اللبن الرائب بالحصيرة لتصنع الجبن.

يتعالى صوت منير:

(يرحم أيام زمان ...

وناس أيام زمان ...

وحاجات أيام زمان ..

يرحم كلام زمان ..

وفرح أيام زمان

ودموع أيام زمان)

صوت منير صاحبه وهو ساكن الشقة الوحيد.. يحاول اللجوء مرة أخرى إلى الفراش.. تؤرقه صيحات هاتفه المتتالية.. رسائل التذكير.. بطاقات الأعمال.. أصوات السيارات التي تخنق صوت منير.

تشتد حرارته.. الطريق لصنبور المياه مضبب، ولكن عليه أن يطفئ نار الفكر في رأسه... يصل بعد ترنحات متتالية، تنساب المياه فوق رأسه، يفرقها بأصابعه فوق رأسه، وكأنه ينقر نقرات متتالية فوق لوحة مفاتيح حاسوبه.

يتذكر أصابع أمه تتخلل خصلات شعره الأسود، و»خناقة» يوم فرض الاستحمام في الشتاء القارس.. وخناقات أخرى لإنهاء الاستحمام في صهد الصيف.

يتباعد وجه أمه بإشراقته وتجاعيده وغضبه وانشراحته..

يتضح الوجه الخمري بشدة.. ملامحها الدقيقة.. عيناها القويتان خلف نظارتها التي تتألف من عدستين رفضتا الأطر.

ينكمش وكأنه يتوارى خلف الشاشة التي تحجبه عنها.. يتذكر أنه ليس في العمل، يسخر من نفسه قليلاً. يقلّب هاتفه بين أصابعه.. يقصيه عن عينيه. يواصل التطلع إليه.. يحفظ رقم هاتفها عن ظهر قلب، كانت تمليه لإحدى زميلات العمل، وكانت الأرقام تنقش فوق قلبه.

تحتجب خلف ملامحها الجادة الحازمة، تلك الأنثى التي تتخفى من تطاول مجتمع الرجال.. يشعر بأنها تشبهه.. أنها منه.. هل خلقت له؟.. هل يستطيع؟.. ولِمَ الخوف؟.. ولِمَ لا يخاف ودقات قلبه رفاهية بين دقات الساعات مدفوعة الأجر.. وتكتكات لوحة المفاتيح فوق مكتبه، وصخب العاصمة؟.

يحاول طرد هاجس الخوف الذي يدل بشدة على وقوع المحظور.. هل خانه القلب بعد سنوات العزل والحظر؟! ..الحب في المدينة درب من العبث.. تغيير القلوب كتغيير الثياب.. وتبادل الأحباب كتبادل الكتب التي لا يقرأها سواه.. وسواها.. لِمَ لم يحاول استعارة أحد كتبها؟.. لماذا لم يُطلعها على ديوانه الأول؟، وهو قد استبدل بطاقته الشخصية بهذا الديوان؛ يحمله معه في كل مكان.. هويته وشهادة ميلاده..

هل ولد فعلاً، أم أن ميلاده معلق بين عينيها.. ابتسامتها البيضاء الخجول؟..

هي مثله لا تعبث بالقلوب.. تتطلع إليها كل العيون العابثة، يتذكر زميلهما الذي يتلمس السبيل لتجاذب أطراف الحديث معها، والدبلة تحتل بنصر يده اليمني، وصاحبة الدبلة زميلة في المكتب المجاور ا.. والخمرية تتحفظ.. ودوره في تلك المسرحية الهزلية أن يتلصص.

الهاتف يراوده من جديد، يقلبه، يداعب أزراره.. يقصيه.. ويدنيه.. يغلقه.. ويعاود فتحه.

كانت تتنقل اليوم كفراشة بين المكاتب، تؤدي عملها بهمة ونشاط، والابتسامة لا تفارقها، رغم انكساراتها المحبوسة خلف جمود العيون.. كلماتها المقتضبة ترنيمته.. «ألف سلامة يا أستاذ».

(حلمت أدك ويمكن أكتر

والحلم الأخضر مكنش يقدر..

حلمك لسه فى إيديك

حاول ما يموتش فيك

حاول حاول)

الجسد ينهار في المقاومة.. شيء في صدره يئنّ بعد أن تحطمتْ كل المصدّات والحواجز،

يتناول هاتفه أخيراً.. يكتب رسالته بأنفاس محبوسة: «لم أقابل إنساناً (إنسان) استطاع أن يؤثر فيّ مثلك»، لم يجرؤ أن يكتب الإمضاء.. ألقى بالهاتف بعيداً، حاول أن يجمع شتات نفسه المبعثرة.. الهاتف يصدر تنبيهه.. لِمَ الرنين الآن خاطف أكثر من كونه مزعجاً؟..

يلتقط الهاتف بأصابع مرتعشة..

رسالة جديدة..

يفتحها بحذر..

«رمز ابتسامه مبهمة – :) –

قرأت ديوانك الأول.. تمتلك أسلوباً عذباً وحساً مرهفاً...».

ارتعد جسده... تصبب عرقاً..

لملم الليل ضوضاءه...توقفت الساعات عن الدقّ..

جمد كل شيء حوله..

وتعالى صوت منير متحدياً الصمت:

(من غير كسوف ..قولتي أنا عشقاك ..

أنا باعترف بهواك ..

ده أنا من زمان عايزاك تبقى حبيب قلبي

من غير كسوف

سبتي الكلام يتقال.. معرفش ليه اتقال

كإنه كان موال بترديه جنبي)

لحن أحادي التوزيع

وكان كلّما غنّى استشعرنا صدق أغنيته..

ولأنه كان وكنّا... أدركنا أن «الغنوة» كالت علينا، وأبداً لن تكن لنا..

صبياً اعتاد أن ينفض إرثه من العمر الذي يثقل كاهله في حضرة الموسيقى، ويعلق كل الالتزامات على شماعة النسيان، ويذوب بين أوتار الجيتار، فينبعث لحناً يشجينا، ينتزع ملامحنا ليشكل بها علامات «النوتة».. نمنحه إياها طرباً..

يحلّق مع الأنغام ولا نجده..

نتعقبه بأبصارنا حتى يتلاشى.. تطول غيبته.. ننتظره.. ويعاود الظهور..

لا نسأله أن يطيل المكوث..

فالفن حرية..

واللحن حرية..

والود حرية..

فليمنحنا ما يشاء من مساحات ضئيلة داخله، وليتغنَّ بنا ولنا..

ولنمنحه أكبر مساحة داخلنا..لحرية التنقل.

والبنت التي كلما طلبوا منها الوثائق التي تحمل صك كونها شقيقته، كانت تتهكم ..فكل الصكوك التي يعترفون بها في عالمهم لن تحمل قيمة صك في القلب..

البنت كانت تحتضن الكواليس بعيونها.. فالكواليس مساحة طمأنته.. والمسرح أرض الاختبار..أرسل نظرتك الأولى لتطمئن أننا جميعاً ها هنا في الحضور.. واشدُ أغنيتك الأولى.. فنحن على أهبة الاستعداد.. تغني بوجعنا كما تشاء، ولن نتوقف عن التصفيق.. ولا تعاود النظر نحونا.. فقط استأنِفْ الغناء..

والبنت التي أخبرت خطيبها يوماً أن لشقيقها غير المثبوت في الأوراق الرسمية كل الصلاحيات، ولا واجبات عليه...كرهت كل الأشقاء الذكور.قررتْ أن تنجب الكثير من الإناث.. أن تخبرهن أن الشقيقات خير سند لبعضهن البعض.. والأشقاء شر.

وعندما تجلس معهن أمام التلفاز ذات مساء، ليصدح صوته من صندوق الدنيا الصغير، سوف تغيّر القناة.. ولن تمنحه لحظة لوم.. لن تمنحه فرصة للتسلل داخلها من جديد.. ولن تشير إليه بطفولة وجنون صارخة «إنه أخي»، كما اعتادت دائماً.

فجنونها وطفولتها أثقلتهما الفاجعة بالنضج.. يوم منحنا جميعاً الآلات، ووزع علينا «النوت» الموسيقية، وأولانا ظهره.. ثم اختار أن يعزف منفرداً.لم تتوقف عن التصفيق، لم تفارقها الابتسامة.. فقط لملمتْ سنوات عمرها المبعثرة من الأنغام ورحلت.

كلمة من حرفين

(١)

قال: أنتِ كالكتاب المغلق.

قلتُ: عندما تتصفح الكتاب لآخر صفحة.. فسوف تبحث عن كتاب آخر.

(٢)

أخبروني أن على قلبي أن يغامر.. وعليَّ أن أحرره من قفصه الحديدي.. وما القفص إلا من ضلوعي، ومفتاحه ضائع في البحر منذ ملايين السنين..وأنا أقف تحت القلعة في انتظار أحدهم ليحرره، وما مغامرته إلا انتحار بالقفز من أسوارها العاتية،متسربلاً في قيوده التي صنعتُها أنا من خوفي.. من حرصي.. وربما من ضعفي.

(٣)

أما القلب القابع أعلى القلعة.. فطالما رفض أن يُحرر في الظلام.. غياب الضوء يشعره بالاختطاف، يجعل من كل الفوارس لصوصاً.. وما يزال يتطلع للفارس المنتظَر الذي سوف يحرره بسيفه المسبوك من نور الشمس، ليمنحه القلبُ ترياقَ الأمان الأبدي.

(٤)

كلمة من حرفين بنبض القلب يلومونني عليها، ولو أدركوها.. لأدركوني.

(٥)

قال: هلّا رسمتِ خريطة قلبك؟.

قلتُ: اتبعْ أقصر الطرق..مضى.. ولم ألتفتْ.

الغرفة الخلفية

في الغرفة الخلفية جلسنا نختلس حق الحوار، متسترين بأنغام زامفير العالية.. نبحث عن إجابات.. علامات.. ملامح.. عن ذوات..عن أنفسنا بين الأنغام.

الصوت منخفض يخشى العسس، والقلب مضطرب يخشى البوح، والبوح جرأة مشروطة، والإنصات أقل وطأة من الحديث، والحديث مراسم لنزع ورق التوت عن حقيقتنا.

مربع من جدران خشبية، تتكوم داخله أشياء بالية، ومربع آخر من أربعة جدران آدمية مهزوزة؛ أضلاع من الفتاتين، ومن الفتيين...لا يهم.. فبريق العيون واحد.. وانحناء الظهر واحد.. وأنين الحلم الضبابي المشتت واحد.

طال عزف زامفير، ومعه طالت جلستنا.

اعتدل، ابتسم ابتسامةً خجولاً.. طرح سؤالاً: «ما الذي قد تفعله لو سقطت منك جماعة أثناء سيركم معاً؟».

أجابه الآخر: «سوف أكمل الطريق.. حتى لا يعوقني أحد».

وأجبت أنا: «سوف أمد لهم يدي لأنتشلهم، فنكمل معاً».

فأطنبت صاحبة الضلع البشري الرابع: «سوف أكمل مسيرتي حتى أجد من يستطيعون مساعدتي، فنكون أكثر قوة لانتشال الآخرين من سقطتهم،

وبعدها نستأنف الطريق».

وواصل زامفير..

يوم... اثنان..

شهر.. اثنان..

عام..عامان..

ستة أعوام من العزف..

إلا أن الضلوع الآدمية افترقت..

وظلت الغرفة الخلفيه شاهداً على تلك السويعات القليلة، حتى فقدت سقفها المعلق.. وجدرانها الخلفية.. وتآكل موضعها فوق الخريطة.

أما السائل.. فسقط.. ظن بأنني قد أمد له يد العون.. ومكث في الهوة ناقماً على يدي التي لم تمتد له قط إلا لتدفعه عكس اتجاه النجاة.. لم يكن يدرك أن بوابة تحرري في الاتجاه المعاكس، وعلى أحدنا أن يدفع الآخر ليستطيع الخروج.. وقد خرجتُ للضوء تاركة بعضاً مني في الجانب المظلم.

والآخر.. تركنا نسقط، إلا أنه لم يستطع المضي،

فعيناه معلقتان على موضع السقوط.. قدماه ثابتتان في الأرض.. ظل بجانبنا حتى حفرت قدماه أخدوداً، ونبتت له جذور في عمق الأرض، وما زال يتطلع لتتبع السحاب.

أما هي.. فرحلت.. أفي سبيل المدد؟.. قد كانت يوماً لي مدداً.. وكنتُ لها.. فرداً كأي فرد..ربما تبحث عن نفسها.. وقد تجدنا.

على الرغم من تكاثف الضباب الحاجب، وتعاقب الرياح والأمطار والزعابيب، فإنني أستشعر أنفاسهم الدافئة تملأ المكان.. بوصلة الحلم خاصتي ترتعش عند نقاط الالتقاء بمجالات أحلامهم النقية.. تتهادى إلى أذنيّ أصوات دقات قلوبهم الحرة المتسربة من قضبان الأقفاص الصدرية.. يتداعى داخل رأسي عزف زامفير.. والكون تشكّل كغرفة خلفية بلا مدخل أمامي.


«هارب»

ضعيف أنا مع كل الآلات الوترية...

تهتز أوتار (الهارب) تحت أناملها الدقيقة، تتقافز الألحان، تنسجم مع نسيج ملامحها الهادئة.. يتسلل النغم الحزين.. تقوده بإشارة رفض من رأسها.. تواصل النسج، وكأنها تغزل أوتاراً من قلبي، ينساب منها الإيقاع.. أتذكر أول عهدي.. السلم الموسيقي:

دو.. ري.. مي .. فا..

فضاء الحجرة كان ملاذي للتأمل، أتفقدُ الآلات الصامتة.. عقب وصلة من الاستماع المسترق البديع، أزداد خشوعاً أمام الأوتار... أتلصص عليها، دون أن أمسّها.. وتزداد رهبتي في حضرة العود، إلا أن الرهبة اليوم تتضاعف أمام رؤيتي للساحرة الصغيرة تقود الجنيّ العملاق، يستجيب لأوامر أصابعها.. تنحني أوتاره احتراماً لها.. تتهادى أصواته الرهيفة، وتتردد في فضاءات السماء، فترتعش الأضواء، تاركة علامات براقة على جسدها النحيل. العالم من حولهما يرقص رقصة كلاسيكية بطعم الشرق، وهما في وقفتهما شامخان يتبادلان العطاء.

دائماً ما كنت أنسى المفتاح.. وأواصل الكتابة..

صول ..لا ..سي ..دو.

دوري كمُقعد في مسرحية الجامعة لم يؤلمني، كما يظنون، أديته ببراعة.. لا أحد يستطيع أن يحبك الدور مثلي. كان يؤلمني عجزهم؛ ذلك العجز الأبدي الذي يجعلهم بعيدين عن إدراك الحياة.. تلك التي جعلوا منها مأساتهم دون مأساة.

وأنا من مقعدي قديماً.. كنت أراه العرش، أراقب من شرفتي لعب الصغار.. مباريات الكرة التي غالباً ما تنتهي بالعراك الصبياني، جيوش الفرسان بالعصي الخشبية، قفزاتهم البهلاونية من فوق ظهور بعضهم البعض، وقد تقوس الواحد منهم ممسكاً ركبتيه بكلتا يديه، ويتوالى قفز الآخرين من فوق ظهره.

ظنوا بأنني أتمنى أن أفارقه، وأكره مكوثي بين يديه، أنني أتطلع للسير.. للركل.. للركض.. أبداً، لم أجد في الركض متعة، كانت متعتي الكبرى أن أسبق برؤيتي أجسادهم اللاهثة وهم يتفحصون مواقع أقدامهم.. أستمع إلى فقرة الأغاني على إذاعة الشرق الأوسط، وأتابع مغامرات (تان تان) إلى ما وراء حدود البصر.

لم أشعر أبداً بالعجز...قبل اليوم...

أبقوني في الصف الأخير حتى لا أعوق الممر بالكرسي ذي العجلتين الكبيرتين.. استيقظتْ عاهتي من غفلتها..

وقتها تمنيتُ أن أفارقه ولو لساعة.. أحطمه، وأتجاوز ركامه.. وأنهي ارتباطنا المقدس الذي لم أشكُهُ يوماً.. وأقف شامخاً أمامها، وأبرع في فعل المشي الذي لم أتعلمه يوماً...أقدم لها باقة من الأزهار الوردية، تتوسطها قرنفلة بيضاء.. ساعة واحدة أقترب فيها من مركز الكون الذي تشكل فيها.

الواقع الجامد أمامي أقسى من التغلب عليه، تشكل الكون كله في ما أراه، ولم أستطع أن أتجاوز الرؤيه كسابق عهدي. يتسارع الإيقاع.. تزداد توهجاً.. ينشط نسيم الهواء الطلق.. تتداخل كل الألوان والأضواء..

أتطلع للصف الأول، والصف الأول لا يتطلع إليّ. يتفطر القلب بالتمني.. تمني القرب منها.. لا كما يتطلع رجل لامرأة.. فقط أردتُ رؤية التماع عينيها الذي أستشعر وجوده بقوة.

تعلو أصوات كل الآلات.. ينفرد الهارب بالصوت الأعلى.. الصوت الأثري.. الصوت الأعمق، وتنفرد هي باحتضان الهارب.. بلمسة أم تهدهد ابنها الطفل الكبير.. يصفق الجمهور.. يتلاشى الصوت..

ينفرد الخبر أسفل صورتهما في الجريدة وعبارة (تمت).

رائحة التبغ

(١)

تصاعد دخان سيجاره الغليظ، حاولتُ أن أقبضَ على خيوطه الملتوية، إلا أنني في كل مرة أجد يدي فارغة إلا من رائحة التبغ.

(٢)

أخبرني أن عطر ثوبي هو عطر كفن أبي نفسه، فلم أعجب؛ لأنه الحي في كفنه.. وأنا أسعى للحياة.

(٣)

أعطيته معطر الفم، نفثه داخل حلقه.. اعتلى المنصة.. زيّف الحقائق.. صفق الجميع.. ابتسم، تجاهلوا لون أسنانه البُنية.

(٤)

نظر بازدراء إلى أظافري غير متساوية الطول، سألني:

– كيف تريدين أن تصبحي كاتبة بأظافر غير مطلية؟!

أجبته:

– لأنني أكتب عن مبتوري الأصابع.

(٥)

سار الموكب.. مضى الجميع خلفه.. سرتُ في الاتجاه العكسي، أتلمس رائحة الفل لتقودني على الطريق.

لم تُكتَب بعد

أتسألني معاتباً: أين كلماتي التي اعتدت أن أسطرها بين طيات الحياة؟... أتلومني على العزوف عن الكتابة؟.. هل لك أن تلوم عزوفها عني؟! قل لي بربك: ماذا عساي أن أكتب؟، قصصي أنسجها من كل المعاني التي قد أعيها، وكيف لي أن أعي أنك.. أنني.. أننا معاً!

أن أسير وسط الطريق مُدَثَّرة في معطفي الأسود، ألهو تحت زخات المطر التي تغسل النفس، غير عابئة بأضواء السيارات المستنكرة.. ونظرات المارة... قد يكون ضرباً من الجنون الذي اعتدته.. أن أتلمس مواضع قدمي بين الأصص على الطريق خوفاً من أن أسحق نبتة في اندفاعي.. ليس غريباً عليّ. ولكن أن ألقاك عندما أرفع بصري ـ بعد أن اطمأننت لموضع قدمي ـ..أجدك هكذا قادماً بخطواتي اللاهية الحذرة نفسها في الاتجاه المقابل.. أحاول أن أغمض عيني عن رؤيتك، فأجدك مرسوماً داخل أجفاني المسدلة.. صورة بلا ملامح، ولكنها أنت.

كيف لي أن أدرك أنك أمامي حقاً... وأنك أنت «أنت».. وأن صمتنا الذي طال دهراً سائد ثورة الطبيعة بسيول من كلمات.. إيماءات.. وابتسامات مبهمة المغزى؟.

تلك المسافة التي تقلصت سريعاً بيننا دون أن نخطو في اتجاه بعضنا البعض، لأجدك أمامي وصورتي منعكسة بين عينيك التي لم أدرك بعد لونهما..

صورة متتالية الأزمنة، فأجد طفولتي الباسمة.. أرى صباي المتجهم.. وشبابي ذلك الذي اقتنصته شيخوختي القلبية.. أراه بين عينيك يعود حاملاً معه الابتسام.

لماذا أراني خائفة كخوفك.. صامدة كصمودك؟.. لماذا أراني دائماً من خلالك.. وكيف اختفى كل شيء حولنا فصرتُ أنا وأنت والمطر والفراغ الممتد عناصرَ هذا الكون أجمع؟!...

يمر يوم.. أيام.. أسابيع... شهور... عام لم تتغير فيه مواضع أقدامنا.. نقتات من الصمت.. ونرتوي من المطر.. ونتنفس هذا الفراغ المهول.

هل حقاً بدأنا نتعلم الكلام مرة أخرى.. بدأنا بالتهتهة.. فالكلمات المفردة.. ثم الجمل البسيطة، فالعبارات التي يتمها الصمت؟

والآن، بعد أن اعتدنا فعل الحوار.. وتعالى صوت ذلك السحر الأسود المسبوك من معنى اختزلوا فيه كل العاطفة، والذي دائماً ما خشيتُ لعنتَه الأبدية.. وتمنيتها في خشيتي.. تسألني عن آخر قصة!

قد أكتب قصة أحياها.. ولا أكتب قصة تحياني..

والعمل القادم.. لم ينتهِ بعد.. لأنه لم يبدأ بعد..

همس مضفّر

شرائطها الحمراء دائمة التبعثر في كل أرجاء البيت.. لا أكفّ عن تأنيبها، ولا تكفّ عن حلّ ضفائرها، مطلقة لخصلات شعرها الأسود حرية التخبط على وجهها الملائكي الصغير.

كانت ترقص ها هنا منذ قليل.. ترتدي فستانها القصير المنفوش وحذاءها الوردي ... بعد أن حررتْ شعرها من كل ضوابطي، غير عابئة بنظراتي التحذيرية.

تطلق ضحكاتها كزقزقة كناريا.. تحتضن دميتها الأسيرة، وتدور في حلقات متداخلة.

كانت تخفيه تحت وسادتها، نهرتها.. أخبرتها أن عليها أن تطالع كتبها الدراسية فقط.. كنت أملي الأوامر وكلي يقين بألها ستخفي الروايات والدواوين داخل حقيبتها المدرسية.. لا أحد يستطيع التصدي لتلك اللعنة، أطرقتُ.. تخاذلتُ.

فقط لو لم تبدأ بـ (العبرات)... ألدى المنفلوطي يبدأ الجميع ؟!

همس يا حصاد أيامي.. صرتِ صبية يانعة، وجهك المبتسم دائماً يحمل عيوناً حزينة.. لماذا لا تتحدثين إليّ على الإطلاق؟، أما زلتِ غاضبة؟.. ألأنني أخشى عليك من كل الشوارع الخلفية التي لا تطل عليها شرفتنا!

هل تستطيع مساحيق التجميل - التي أوبخك دائماً لمبالغتك فيها - أن تخفي ملامحك المنكسرة؟..ليتها تستطيع أن ترسم البسمة على شفتيك مرة أخرى.. أو تضيف الألوان لصفحاتك المسودة بالرصاص، والمذيّلة باسمك قليل الحروف «همس»، والممنوعة أنا من الاطلاع عليها.

لم أفرض عليك يوما صوماً أبدياً للقلب..كنت أحول بينك وبين وجع التجارب الفاشلة.. ها أنت ثمرة ناضجة تتطلع إليها كل العيون.. وتأبى أن تصل إليها أي يد.

لماذا قصصتِ شعرك حد الصلع!، وصار حاسوبك هو صديقك الأوحد؟

سوف أجلب لك فستانك الأبيض القصير المنفوش، وحذاءك الوردي.. لم أقصد أن أربط الشريطة فوق عينيك، فقط كنت أجدل ضفائرك.. دعك من هذا الآن، سوف لن أجدل شعرك مرة أخرى..حرريه وأطلقيه، واجعليه يتموج في كل الدروب، وارقصي رقصتك الأثيرة..

أبوك يعزف ألحان موتسارت في الخارج، يدق على البيانو بأصابعه الساحرة.. لماذا توقف أبوك عن العزف.. وتلاشى صوت الموسيقى حتى انعدم؟، ولماذا ما زلتِ تقفين أمامي دون حراك؟!..

وكأنني أراك لأول مرة.. تشبهينني كثيراً؛ العيون العسلية نفسها، الأنف المنمنم، الشفتان الصغيرتان.

فقط دعيني أملّس على شعرك القصير.

تقترب، ترى وجهها أكثر وضوحاً، انتشرتْ الخطوط حول عينيها، والكسرات فوق جبهتها، وبعض البقع الداكنة تغزو الوجه..تمد يدها المرتعشة.. تتصادم مع انعكاسها في المرآة.. تتسع حدقتا عينيها للحظة.. تتراجع باتجاه شرفتها.. تفتح «الشيش» الموارب لتلقي نظرة أخيرة على منتصف المدينة.

ما بين النخلة والجدول

إلى (هيباتيا) ملهمة كل النساء

على الخط الفاصل بين السماء واللون الأخضر، كانت تتعامد في شموخ، مبعثرة سعفها الأخضر في قرص الشمس. كان يشير إليها بسبابة يده اليمنى، بينما يربّت على كتف ابنته باليد الأخرى مؤكداً على أذنيها الصغيرتين مرات عدة أن حدود الأرض ما بين هذه النخلة والجدول.

تساءلت عن الأرض والمحصول، عن ماء الجدول؛ منبعه ومصبه وامتداده، عن النخلة العاقر التي لا تطرح، وسر إبقائه عليها!.. استطردت في طرح سلاسل تساؤلاتها كالعادة، والأب يجيب دون تذمر..تغيرتْ ملامحها فجأة.. قطبت حاجبيها.. أطرقتْ، وطرحتْ سؤالاً بنبرة مختلفة:

– أبي، نساء القرية يقلن إن اسمي اسم شؤم، وإنك سميتنيه تطيراً بعدما ماتت أمي يوم ميلادي!.

ضمها في رفق، حملها بين ذراعيه، خلخل أصابعه بين خصلات شعرها المنسدل، أجابها بصوت دافئ:أميرتي.. ليس كل ما يقال حقيقة، يوماً ما سوف أحدثك عن صاحبة الاسم، وسوف تتحدثين أنت ويستمع إليك الجميع.

(هيباتيا) كبرت.. زادت معرفة وذكاء.. صارت أجمل فتيات القرية، وزادت معها لعنة الاسم، خاصة بعدما مات أبوها.

كانت تُسحل كل يوم في الحقول.. تتابع مراسم سلخ جلدها.. تعلق في النخلة.. تتسرب دماؤها على الجذع.. تصحو فزعة.. تصرخ، ولا أحد في الجوار.. تجفف عرقها.. ترتشف بعض الماء، تطالع بعض كتب أبيها حتي يغلبها النوم.

..(هيباتيا) بدأتْ تتحدث، والجميع ينصتون..كلماتها كالسحر؛ تتوغل في كل الدور، ووجهها الباسم يفتح كل الأبواب الموصدة.

(هيباتيا) تجلس دائماً داخل حقلها مستظلة بالنخلة، ويقصدها الجميع طلباً للمعرفة..تتناسى أمر الاسم، واللعنة، وتخلد للنوم لساعات دون أحلام مزعجة.

.. نساء القرية يحقدن عليها.. يتهكمن لجلستها بين الرجال، تارة يقلن إنها ساحرة، وأخرى يؤكدن أنها «مخاوية». تزداد الهمهمات.. تصبح كلمات متناثرة بين ألسُن الجميع.. تعلو نبراتها شيئاً فشيئاً.. يخوضون في عرضها؛ فلِمَ ترفض امرأة في جمالها الزواج وتعيش وحدها؟!.. يتحول الأمر إلى اتهام بالكفر.

يعتصرها الأرق القديم.. يحاصرها الخوف، يغتال بسمتها.. يعشش في كل حجرات البيت.. يتفاقم ويمتد ما بين النخلة والجدول..

تشق طريقها من اسمها.. تلملم كتبها وأوجاعها ووحدتها وتهرب.. ترتحل إلى الإسكندرية..

كانت تجلس كل صباح تبعثر حنينها فوق الصخور الصلدة، تجلس قبالة البحر دون ظل، تواصل طرح متتالية تساؤلاتها.. تفتش بين الريم عن إجابات باقية، تسابق أفكارها، تلاحق الأمواج...

كانت تقرأ في حجرتها المنعزلة بصوت مسموع، فقد خشيت أن تفقد صوتها بعدما تعاطت الصمت طويلاً، حرصت أن تخفي اسمها وصوتها وفكرها.. وأن تعيش كنورس مهاجر وحيد، لا يتتبعه أحد.

يتحسس أنفها رائحة الطين في كل ما هو أخضر.. وتعانق عيناها كل النخلات الباسقة..

وبينما كانت تطالع «الجمهورية» لأفلاطون.. لاحظت أن الموج هادئ جداً، المياه شبه الساكنة تذكّرها بماء الجدول، مجموعة من الطحالب الخضراء تتجمع أسفل قدميها المنغمستين داخل المياه، تتحد مع جزء صغير من بوص الصيد الرفيع.. تتمدد الطحالب.. تنقسم على الجانبين كنخلة فوق سطح الماء.. يتراقص ضوء الشمس فوقها.

تتلقى (هيباتيا) الرسالة..

تتسع حدقتا عينيها.. يشتد الموج ليمحو ما كتب فوق سطح الماء..هي تثق في نبوءاتها.. تستجيب.. تغادر الإسكندرية.. تعود إلى القرية.

لا أحد يلاحظ وجودها، الجميع يهرول ناحية الحقول.. تتبعهم، يتجمهرون بين النخلة والجدول، يتنازعون في أرضها.. كلٌ يتحدث عن نصيبه من القسمة!

أحدهم يتحدث عن تحويل مسار الجدول.. الآخر لا ترضيه القطعة الشرقية.. يضيف ثالث أنه سوف يزيح حدود أرضه ليضم لها القيراط الجديد.

تستنكر استباحة أرضها... لا أحد يهتم، الجميع منهمكون في قياس الأرض والثرثرة، يتفقون جميعاً على اقتلاع النخلة.. تعترض، يتجاهلون اعتراضها.. يمسك أحدهم بالفأس.. يضرب ضربته في قلب جذع النخلة.. يتألمان معاً.

تصرخ (هيباتيا).. تتردد صرخاتها في جنبات القرية.. ينتبه الجميع لعودتها.. تنتزع الفأس، تقبض عليه بكلتا يديها ومعه كتاب أفلاطون الذي ظل معها طوال الطريق.. تطوحه يميناً ويساراً.. يتراجع الجميع مندهشين.

(هيباتيا) الرقيقه تثور، تحمر عيناها، يغلظ صوتها، قدماها ثابتتان في الأرض، قامتها الفارعة تزيدها مهابة، والفأس في يدها كمحاربات الأمازون.

تأمرهم بالرحيل... يفزعون.. تزداد قوة لهجتها الآمرة.. يمتثلون..يتراجعون..

يتسربون من أرضها.. يفرغ المشهد ليبقيا - (هيباتيا) والنخلة - على الخط الفاصل بين السماء واللون الأخضر متعامدتين في شموخ.

تلتف للجذع المطعون، تحتضنه.. يتراءى لها وجه أبيها مبتسماً في قرص الشمس أسفل السعف الأخضر.

تبتسم.. تحييه.

تخاطبه بصوت لم يعد يخشى اللعنة:

- اطمئن يا أبي، «هيباتيا لن تُقتل بعد اليوم».

دانتيل أبيض

تجمدتْ في مكانها.. شحب لونُها، بدأتْ قطرات العرق البارد في السيل أعلى جبهتها، هل حدث ما تخشاه؟..هل تتجاهل نداءها وتفر ركضاً هاربة من المكان؟..أي جنون قد دفعها للذلك؟

الآن قد تُحمّلها ثمنه كاملاً.. وأين لها بمثل هذا المبلغ الباهظ؟

هي لا تعلم بعد كيف سيمرُّ الشهر والشهور المقبلة، فإيجار الشقة وأقساط الأثاث مع الديون المتراكمة، كلها أشياء كفيلة بأن يجوعا لمدة عام كامل.هي لا تخشى الجوع.. فقط تخشى نظرة مكسورة من عينيه تحمل بعض اللوم.

لماذا طاوعت رغبتها المخبولة تلك؟

هي لم ترغب في شيء؛ أي شيء مما تتطلع إليه سائر الفتيات..لم تتمنَّ إلا أن تكون معه.. وهو لم يقصّر في شيء.. كان أشبه بترس يدور داخل ماكينة لا يتوقف عن العمل.

كانا يحلمان ليلاً، ليغتال أحلامهما الصباح.. تضاءلت أحلامهما وانكمشت، وتلاشت مع الوقت، معلنة انتصار كل الظروف.. إلا أن وجودهما معاً كان الانتصار الأكبر على الإطلاق.

النداء يتكرر للمرة الثانية..

هل تخبرها بالحقيقة؛ أنها لم تستطع أن تقاوم رغبتها في الاحتفاظ ببعض منه.. بشيء منه..

أنه رافقها طوال السهرة.. خرج معها من المسجد، لملم بعض رمال الشاطئ، واستمع إلى أحاديثهما الهامسة، أنها كانت تطمع في الاحتفاظ بالوردة أعلاه، ولكنها خشيت أن ينفضح أمرها، فاكتفت بذلك الشريط الدانتيل المتعرج الذي يذيله.. أنها لا تستطيع تحمّل ثمن الثوب، وإلا ما كانت استأجرته من البداية!

هي لم تتمنّ اقتناءه، كان يكفيها أي ثوب لعقد القران وإتمام الزيجة، ولكنه أصرّ على رؤيتها بالفستان الأبيض المنفوش.

لو لم يخبرها أن طلتها بالأبيض أشبه بطلّة حورية من العالم البلوري، لما انقادت بكل هذا السحر للاحتفاظ بشيء من بياضه.

إنه النداء الثالث..

استدارت للمواجهة المحتومة، كانت تحاول ترتيب عبارات التبرير..

دقات قلبها كانت أشبه بقرع طبول الحرب..

كانت علي وشك الانفجار في البكاء الشديد..

أجابت بصوت مخنوق:

«نعم».

ردت صاحبة المشغل وهي تلوّح ببطاقة شخصية بين أصابعها:

«البطاقة».

أطلقت شهقة زفير غير مبررة.. بدأت ملامحها المتقلصة في الانبساط مرة أخرى..

تسلمت منها البطاقة..

استدارت وخرجت من المكان بأسرع ما يمكنها.

أطياف القلعة الرملية

على الخط الساكن بين المياه الفيروزية والسماء المطعمة بقطع السحاب الثلجي الناصع.. كانت عيناها تراقبان النورس الوحيد الذي ضلّ السرب.. كان يحوم في كل الاتجاهات بحثاً عن علامة أو دليل للّحاق بالموكب.. يبتلعه المشهد ويعاود الظهور.. ورغم ضآلته، وبعد المسافة؛كانت تستشعر انكسارة عينيه المظللتين بالسواد.. طالما خبأت هذا النورس خلف جفنها، وأسدلت عليه أهدابها..كانت تستحضره مع كل مرة تطرح سؤالها المعهود: عن البحر والسماء؛ أيهما أجمل؟ لم تملّ السؤال، ولم تجد يوماً إجابة ترضيها.. حتى أجابها.

كانا يجمعان الرمل الرطب فوق الصخرة البيضاء قبالة الشاطئ.. والتي توالى عليها ارتطام الأمواج التي تطاولت ألسنتها المزبدة لحافة الصخرة، ولم تجرؤ على الاقتراب مما جمعا.

ازاد الماء فوق الرمال.. عجنته بكلتا يديها جيداً.. وصنعا منه تبّة عالية في منتصف الصخرة.. وفي تحدٍ سافر للمد شرعا يبنيان قلعتهما المشيدة. بثلاثة أبراج متباينة الطول، كثيرة النوافذ، محصنة بسور مرتفع، وبوابة يتدرج سُلّمها حتى أسفل التبة.. تم البناء.

اتسعت ابتسامتها، حتى انعكست أشعة الشمس على سطح أسنانها البيضاء.. نفضت الرمال عن فستانها الأزرق، أقبلت على البحر تجرجر قدميها صانعة

مكانهما أخدودين تولى الماء أمر ردمهما سريعاً.. استقبلت قبلات البحر المطبوعة بالرذاذ المملح، تاركة لخصلات شعرها الفاحم حرية التخبط في كل اتجاه.. أغلقت عينيها واستنشقت اليود بقوة.. استحضرت نورسها.. حاولت أن تطلقه، إلا أنها سارعت بإغلاقهما أمام توهج الشمس المبهر.

سألته السؤال المعهود.. فرك حبات الرمل العالقة بين يديه لبرهة.. أجابها في يقين: «البحر». استدارت بجذعها للخلف، ألقت عليه ابتسامة هادئة.. واستأنفت سؤالها: لِمَ؟

أجابها: يشبهك.

التفتت صوب الموج مرة أخرى، احتضنت عيناها أمواجه المتتالية،

حاولت إخفاء حمرة وجهها، اقترب منها بضع خطوات وأطنب:

يحمل بعض تمردك.

كان هناك نورس آخر يلوح في الأفق، النورس الساكن بين عينيها يخفق بشدة.. حاولت إحكام غلق الجفن.. لم يمهلها.. انطلق يحلق بجناحيه بعيداً، بعدما انكسر رمشها وتهادى فوق خدها.

نبهها للرمش المنكسر العالق، التقطته بطرف إصبعها، حمّلته أمنيتها الصغيرة

وألقته قرباناً للبحر.

في المساء غرست ياسمينة بيضاء أعلى أبراج القلعة.. اطمأنت لبعد بنائهما عن الموج.. تجاهلت جفاف جدرانها الرملية وتساقطها.. وفي الصباح التالي، كانت الصخرة عارية إلا من بعض حبات الرمال تتلاعب بها تيارات الهواء.

انتظرته كثيراً عند الشاطئ.. سألت عنه الصيادين، والفتيات اللاتي يغزلن الشباك، وبائع «الفريسكا»، والعجوز عند «نَصبة» الشاي. تباينت الإجابات: كان هنا منذ قليل.. سافر.. ابتلعه الموج.. لم يروه من قبل.

جلست قبالة البحر، واحتضنت ركبتيها، وظلت تتطلع للأفق.. يوم.. اثنان.. وفي اليوم الثالث، راعها عودة نورسها وحيداً بجناح دامٍ.. فتحت عينيها جيداً من أجله، عاود السكن خلف الجفون، مخضباً بياض عينيها بنزفه.

وهو لم يجيء..

وهي ظلت تسأل عنه الأمواج المتعاقبة دون جدوى.

صرخت في وجه البحر، لعنته.. قذفته بقطع الصخور..

قررت أن تستعيد قربانها من ثناياه، اخترقت المياه المالحة.. ظلت تبحث عن الرمش المفقود، والأمواج تلفظها أحياناً وتجذبها في معظم الأحيان. أطلقت

نورسها للمرة الأخيرة، طردته وأغلقت عينيها للأبد.

على الصخرة البيضاء قبالة الشاطئ ..كانت الأطياف تبني القلعة كل مساء..
تزينها بياسمينة بيضاء، وتغتال القلعة في الصباح.

أقسموا في أحاديثهم المسائية.. أنها جنيّة البحر..كانت هنا منذ قليل..
سافرت.. ابتلعها الموج.. لم يروها من قبل! وكان النورس المجروح، الذي لم
يلتئم جرحه يوماً.. يحلّق في الجوار.

دُمْں

(حبظلم)

دب أبيض كبير.. أهداه شقيقها إياه في عيد ميلادها الرابع عشر.. ظل دميتها الأثيرة، وأدركت في الذكرى الرابعة والعشرين للميلاد أنها اختارت له اسماً مزيجاً من «الحب»و «الظلم» ليظل شاهداً من قطن وفراء أنهما متلازمان.. وأنها ما كان لها أن ترد بحر المشاعر ليلاً.. حتى لا يمنحها شربة من بين كفيه تظمأ بعدها أبداً.

(حنة)

يا بكارة الإحساس.. يا أول دمية وآخر دمية.. تسترق احتضانها في الخفاء خشية أن يضبطها أحدهم متلبسة بالحنين.

(عروسة)

أهدتها لنفسها.. علّها تستعيد بعضاً من براءة العمر الذي سُرق.. تمزقت العروسة قبل أن تمنحها اسماً.

(مهرّج)

دمية على ورق رسمتها بالرصاص داخل ديوان فاروق جويدة، بعدما عبثت بالقصيدة، وأضافت جوار «لا تنتظرْ أحداً» لن يفهم أحد..لن يشعر أحد.. « فلن يأتي أحد»..لن يأتي أحد..لن يأتي أحد.

الفهرس

صدر للكاتبة

« للصفيح بريق خاص» مجموعة قصصية........ ٢٠١١

تعريف بالكاتبة

شيماء زايد، مصرية ، من مواليد دمنهور ١٩٨٧ ، خريجة كلية الآداب قسم اللغة العربية ، مصممة جرافيك .

للتواصل مع الكاتبة

http://www.facebook.com/Shimaa.H.Zayed
Sh.zayed1@gmail.com



Noon_publishing@yahoo.com
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢   ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

لَسْتُ بِأُنْثَى

سئمتْ الانتظار، قررتْ أن تسأل
مرأتها سؤالاً أخر.. لم تجد إجابة..
استرحمتها..استنطقتها.. صفعتها
بكلتا يديها، وأخذت تتحسس
الشروخ المنتشرة على سطحها
كعش عنكبوت؛ متأملة صورتها
المتكسرة بين الأجزاء، غير عابئة
بالدم المنساب من أصابعها،
والشظايا المغروزة في اللحم.




ISBN 9789776436329

